الرحالة ابن جبير في العراق

بقلم الاستاذ عبد اللطيف نوري

توطئة

بينما كانت الحروب الصليبية قائمة على قدم وساق بين المسلمين والافرنج الغزاة في الشرق وقبل سبعماية وستة وثمانون عاما وبزمن حكم الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، زار العراق الرحالة الشهير محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي والملقب بابي الحسين قادما اليه من الحجاز بعد ان ادى فريضة الحج ببيت الله الحرام متجشما كل هذه المتاعب ووعثاء السفر بطريق الصحراء — البادية — من المدينة المنورة الى الكوفة ، وقد قطع هذه المسافة التي تنوف على ١٣٠٠ كيلو متر بمدة قدرها عشرين يوما على ظهر جمل مع قوافل الحجاج العراقيين والعجم الخراسانيين العائدين الى بلادهم بعد اداء فريضة الحج . وكان القصد من هذه الزيارة التطلع والوقوف على حالة العرب والمسلمين في بلاد المشرق وما وصلوا اليه من ناحية التمدن والرقي والعمران والتجارة والصناعة ، هذا من جهة والمشاهدة عاصمة العراق وغيرها من المدن الشهيرة والوقوف على آثارها ومعالمها من جهة اخرى اسوة بالذين سبقوه في هذا المضمار من جغرافي العرب الاقدمين كابن خرداذبة واليعقوبي والهمداني والمقدسي وغيرهم .

وقد اثبت لنا احد المؤرخين الشيخ احمد المقري بسنده عن (ابن الرقيق) احد اعلام العلماء في غرناطة عن سبب قيام ابن جبير برحلته الى المشرق هو ان السيد ابن سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة قد استدعى ابن جبير في احد الايام لمجلسه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرابه فمديده اليه بكأس فاظهر الانقباض وقال ياسيدي ما شربتها قط فقال والله لتشربن منها سبعاً فاضطر الى شرب سبع كؤوس فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصب ذلك في حجره فحمله الى منزله فندم وعزم الى الحج الى بيت الله الحرام للتكفير عن ذنبه فاستأذن صاحب غرناطة بذلك فاسعفه وباع ملكا تزود به وانفق تلك الدنانير في سبيل البر والرحلة .

وللقارئ ترجمة الرحالة المغفور له الذي سجل لنا اشياء كثيرة لولاه لعفيت آثارها كالمدن والقرى التي مر عليها والاعلام والشخصيات التي تعرف بها في اماكن مختلفة من هذا القطر وذلك اثناء مروره ورحيله من مدينة الى اخرى بالطرق الرئيسية المؤدية الى دار الخلافة — بغداد — فاقول في ترجمته :

يقول الزركلي خير الدين في كتابه قاموس الاعلام في الجزء الثالث في الصحيفة ٨٥٠ مايلي :

محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي ابو الحسين رحالة اديب ولد في بلنسية وبرع في الادب وتنظيم الشعر الرقيق واولع بالترحل والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات احداها سنة ٥٧٨ — ٥٨١ هـ وهي التي الف فيها كتابه (رحلة ابن جبير) ومات بالاسكندرية عام ٦١٤ هـ في رحلته الثالثة الى المشرق وقد ترجمه كثير من المؤرخين كالوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله في كتابه (الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة) والمقريزي الشيخ تقي الدين احمد بكتابه (تاريخ مصر الكبير المقفى) والشيخ احمد المقري صاحب كتاب (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) وغيرهم من اصحاب تراجم الرجال والسير وكلهم متفقون على انه ولد في بلنسية من اعمال الاندلس عام ٥٤٠ هـ وتوفي في عام ٦١٤ هـ في الاسكندرية اثناء قيامه برحلته الثالثة الى المشرق ويتضح من ذلك انه توفى عن عمر يناهز (٧٤) عاما . ولما زار العراق كان عمره ما بين ٣٤ او ٣٥ سنة بالضبط .

عاد ابن جبير من رحلته الاولى هذه في غرة محرم عام ٥٨١ هـ الى غرناطة حيث منزله ودون رحلته هذه تمداد الفخر بقلمه ونقلها منه كل من كان يرغب من المؤرخين والعلماء والشخصيات العظيمة في الاندلس بغية الاطلاع على ماقامت به هذه الشخصية الفذة خلال رحلة امدها ثلاثة سنوات من عام ٥٧٨ — ٥٨١ هـ قام بها من الاندلس الى مصر ومنها الى الحجاز والعراق وسوريه وجزيرتي سارد ينيا وصقليه وثم الاندلس (اسبانيا) بلاد الوطن